مزايا السكنى فى عُلِّيَّة البيت[1]

بقلم

صمويل چنسن Samuel Johnson

۱۷۰۹ — ۱۷۸٤

[كان أبوه بائع كتب فى بلاد الريف ؛ وبعد أن تعلم فى مدرسة بلده أرسل إلى أكسفرد ، لكن الفقر حال بينه وبين إتمام دراسته فيها ؛ ثم افتتح له مدرسة بالقرب من بلده فلم يأت إليها إلا تلميذان أو ثلاثة منهم داڤد جرك David Garrick الممثل المشهور ، واشتغل مراسلا برلمانياً لإحدى الجرائد ، وأَخرج فى هذه المدة عدة قصائد وروايات ومسرحيات وأنشأ جريدة الجوال The Rambler . وكان فى الوقت نفسه يعمل فى قاموسه العظيم الذى أذاع شهرته وجاءه بدرجتين جامعيتين من أكسفرد ودبلن ، كما جاءه بمال وفير أنفقه كله فى طبعه . ثم رتبت له الحكومة معاشاً قدره ۳۰۰ جنيه كان ينفق الكثير منه فى وجوه البر المختلفة .

وكان چنسن زعيم الأدب فى عصره ، وهو الذى أنشأ نادى الأدباء ، وكان من أعضائه صديقه جيمس بزول James Boswell كاتب سيرته الشهيرة التى تعد خير السير على الإطلاق والتى يقول مكولى فيها « إنها رفعت من قدر چنسن أكثر مما رفعته أحسن مؤلفاته » .

---

(۱) فى القاموس العلية الحجرة وجمعها العلالى وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة Garret وهى الحجرة التى تلى سطح الدار مباشرة .

وخير ما كتبه جنسن « رحلته إلى الجزائر الواقعة فى غرب اسكتلندة » و « حياة الشعراء » ؛ ولكن شهرته لا تقوم على شعره وكتبه ، بل تقوم على شخصيته الفذة ، وحديثه العذب ، وعلى سيرته التى كتبها بزول . وقد كان له أكبر الأثر فى الأدب الإنجليزى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر] .

١٣

إن أكبر ما يعترض سبيل تقدم العلم ميل العقول البليدة للاستهزاء عما لا تفهم . ذلك بأن الإنسان لا يَجدّ ويعمل إلا إذا كان له من وراء جده وعمله أمل ، وكثيراً ما يكون الأمل الوحيد للعاملين أن يمدحهم الناس ويثنوا عليهم ، فإذا لم يجدوا بدل هذا إلا التحقير والإهانة استسلموا لليأس ، كما يستسلم لليأس أيضاً من يجيء إلى المجتمع الصاخب مستمسكا بحياة العلماء المفكرين ، لم يوطن نفسه على مواجهة الحياة العامة ، أو يرض عواطفه على احتمال ما فى حديث الناس من سخافات ، فتراه يغلبه الحياء إذا ما نظر إليه مكذب شكس نظرة من لا يصدق أقواله . وإذا ما ضحك الناس منه واستهزءوا بقوله فقد ينهزم أمامهم مهما يكن مسلحاً بأقوى البراهين ، فإن كان مهندساً خشى أن يقول أمام معارضيه الأقوياء إن فى وسعه أن يهدم الحصون بخيط من حرير ، وإن كان فلكياً لم يقو على التصريح بسرعة الضوء وبعد النجوم الثوابت وعلو الجبال فى القمر .

ولو أننى استطعت أن أتحرر من هذا الجبن لما تخفيت تحت اسم مستعار ، وأنا أطلب إلى هذه الصحيفة أن تنشر على الناس آرائى فى موضوع السكنى فى العُليّة ، وهو موضوع لم يعن به حتى الآن أجدر الناس بالكتابة

فيه ، ولهذا لم نقرأ عنه إلا قليلا . وقد يكون سبب هذا الإهمال أن الكتاب لا يجدون متسعاً من الوقت لمواصلة البحث الذى يتطلبه مثل هذا الموضوع الدقيق ، وقد يكون سببه أنه يحتاج إلى علم غزير متنوع ورغبة قوية فى الاطلاع قلما يجتمعان فى عقل واحد . ولعل بعض الكتاب قد تنبئوا بما قد تثيره عليهم آراؤهم من صخب وضجيج ، فاحتفظوا بعلمهم فى صدورهم ، وتركوا الحمقى ذوى الأهواء يخبطون فيه خبط عشواء .

لقد عرف الناس من أقدم الأزمنة أن أساتذة الأدب يسكنون عادة فى أعلى الطبقات ، ذلك أن القدامى قد هدتهم حكمتهم بما للأماكن العالية من فوائد للعقل لا تنكر ، وإلا فلم كان مقام ربات الشعر فى ألمبس Olympus [١] أو برنسس Parnassus [٢] حيث وضعها أولئك الذين كان فى وسعهم أن ينشئوا لها العرائش من الأغصان فى الوديان المنخفضة ، أو يشيدوا مذابحها عند منحنيات الأنهار ؟ ولم نشأ جيتر رب الأرباب على الجبال ؟ ولم اجتمعت الإلهات الإناث فوق قمة أيدا Ida [٣] ليفصلن فيما شجر بينهن حين اختلفن على من تستحق منهن جائزة الجمال ؟ تلك هى الأساطير التى حاول بها

---

(١) ألمبس Olympus اسم قديم لعدة جبال أشهرها جبل على حدود مقدونيا وتساليا ، كان اليونان الأقدمون يقولون إنه موطن الآلهة ، ويبلغ ارتفاعه نحو ثمانية آلاف قدم .

(٢) بارنسس Parnassus جبل آخر من جبال اليونان على بعد ٨٣ ميلا من شمال أثينة الغربى بالقرب من مدينة دلفى ؛ وهو عند اليونان الأقدمين مقر أبلو وربات الشعر ، ومن أجل هذا عد منبع الشعر والموسيقى . ويبلغ ارتفاع أعلى قممه نحو ٨٦٠٠ قدم .

(٣) أيدا Ida سلسلة جبلية فى آسية الصغرى قرب طروادة وأخرى فى جزيرة كريد وكلتاهما ذات صلة بالأساطير اليونانية القديمة .

الأقدمون أن يظهروا للخلف أهمية العلالى . ولقد ظلت الأجيال التالية لا تدرك المعنى المراد من هذه الأقوال لجهلها وقلة عنايتها ، وإن كان فيثاغورس العظيم قد عناها بقوله المشهور :

« إذا هبت الريح فاعبد صداها »

ولم يكن أتباعه ليفهموا من هذا القول إلا أنه أمر منه ، لا يستطيعون أن يعصوه ، بأن يسكنوا العلالى ، وهى حجر قد وجدت أنا نفسى أنها فى مهب الريح وطريق صداها ؛ وظل هذا المعنى نفسه هو المفهوم من هذه العبارة فى العصر الذهبى للأدب اليونانى . وما من شك فى أن تيبليس Tibullius (١) كان يهنئ نفسه بعليته ويشير إلى حكمة فيثاغورس السابقة حين يقول :

« ما أحلى أن يقضى الإنسان أوقات فراغه نائما تهدئه الريح العاصفة والمطر المدرار » . ولا يسع الإنسان إلا أن يتبين حب لكريتس — وهو كاتب متقدم على تيبليس — لسكنى العلالى فيما وصف به العلم من سمو ورفعة ، وفى قوله إن الرجل الحكيم يغتبط حين يُطِل من مركزه الرفيع على العالم وهو يموج ويضطرب من تحته ، وذلك فى قوله :

« ما أحلى أن تقودك خطاك إلى مراقى الفضيلة وأنت مزود بالحكمة ومسلح بالعلم الخطير الغزير ، ثم تطل من مقامك السامى على بنى الإنسان وهم يتعثرون فى طرق الحياة الملتوية عمياً لا يبصرون » (٢) .

---

(١) تيبليس Tibullis. (٥٤ ق . م — ١٨ ب . م) شاعر رومانى من كتاب المراثى الشعرية .

(٢) ليس فى هذا الوصف بطبيعة الحال إشارة إلى مزايا السكنى فى الحجرات العالية كما يقول الكاتب مداعبا .

ولقد بقيت سكنى العلالى تقليدا متبعا لدى العلماء إلى يومنا هذا ، فلا تزال هذه الحجرات مأوى الفلاسفة والشعراء ، ولكن الذى أبقى على هذه العادة ، كما أبقى على كثير غيرها من العادات القديمة ، هو التقليد غير المقصود ، دون أن يعرف المقلدون منشأها ، ولا يزال سببها خفيا مجهولا وإن كان أثرها معروفا .

نعم إن هنالك أسبابا يفترضها البعض لتعليل سكنى الأدباء فى هذه الحجرات ، ولكنها لا تقنع الباحث المحقق . فمن الناس من يظن أن الأديب الألمى يسكن العُلّية لأنها أقل أجراً ، واستنتجوا من ذلك أن المقيم فى هذا المسكن الهوائى لا يغتبط به إلا فى اليوم الذى يؤدى فيه أجره ؛ ومنهم من يظن أن أكثر ما يحبب الأديب فى العلالى أنها أبعد أجزاء الدار عن بابها الخارجى الذى يغشاه الزائرون فى كثير من الأوقات ، ولا ينقطع عنده حديثهم عن الخبز والملابس الداخلية والخارجية ، يكررونه كل صباح ، وكثيراً ما يعيدونه بنصه فى المساء ، لا يكاد يختلف فى شىء اللهم إلا فى كثرة الصخب واللجاجة وفى اختلاف الأصوات من الهمس الحزين إلى الغضب الصاخب ، وهذا الاطراد المستمر العملى مما يمقته الرجل الذى لا يلذه شىء أكثر من زيادة معلوماته وتنويع آرائه .

ومنهم من يقول إن الأدباء يختارون هذا المسكن لأنه يمنع عنهم الضوضاء ويباعد بينهم وبين ما ألفه الناس من مشاغل وملاه جمة . وثمة طائفة أكثر من كل هؤلاء تعلقاً بالخيالات والأوهام تقول إن مواهب الإنسان تتسع آفاقها فى المناظر الرحبة المكشوفة ، وإن الخيال يكون أكثر حرية إذا كان البصر غير محصور فى حدود ضيقة وتلك أسباب للراحة قد تكون كلها متوفرة فى علية الدار إذا أحسن اختيارها .

ولكن أحداً لا يظن أن لهـا من الخطر ما يجعل لها هذا الشأن العظيم فى كل الجواء وفى جميع العصور وعنـد مختلف الشعوب ؛ وإذا رأيت عادة شائعة منتشرة هذا الانتشار الواسع فالذى يتبادر إلى الذهن أن لها سبباً عاماً ؛ ومهما خفى هذا السبب واستغلق فقد تكون الأقدار قد احتفظت به حتى أكشفه أنا فيعلو قدرى بكشفه وقدرك أيها القارئ بالعمل على نشره .

من المعروف لدى الناس عامة أن المواهب العقلية تقوى أو تضعف تبعاً لحالة الجسم ، وأن الجسم نفسه يتأثر إلى حد كبير بضغط الهواء عليه . ولم ينكر أحد قط من عهد أبقراط إلى يومنا هذا ما للهواء من أثر فى إصابة الجسم بالعلل أو برئه منهـا ، ولكن أحداً لم يعن قط العناية الواجبة بما للهواء من أثر فى عمل العقل ، وإن كنا نرى فى كل يوم أمثلة من الأفهام والعقول والبدائه السريعة قد تكيفت مواهب أصحابها لتلائم مكاناً خاصاً ، إذا أبعدوا عنه إلى غيره صمتت ألسنتهم وجمدت عقولهم . ولقد تبين لى بعد مشاهدات طويلة أن ملكة الاختراع وفصاحة اللسان تؤثر فيهما أسوأ الأثر الأبخرة الكثيفة غير النقية ، وأن رقة الهواء الصافى البعيـد عن سطح الأرض تنمى الخيال وتطلق القوى العقلية التى كانت من قبل أسيرة الجاذبية الشديدة ، مقيدة بها لا تستطيع أن تتسع لما تنوء به من ضغط الهواء الكثيف . ولقد وجدت أن بلادة الحس تستحيل إلى شعور مرهف فى الوسط الرقيق ، كالماء يسرع فى الغليان إذا وضع فى إناء أفرغ منه بعض الهواء . والرؤوس الفارغة فى الظاهر إذا انتقلت إلى مكان عال ازدحمت فيها الأفكار حتى تصبح أشبه شىء بكرة القدم التى انتفخت فاتسع فضاؤها وجمدت جوانبها .

ولهذا فإنى لم أعتقد فى يوم من الأيام أن من حقى أن أصدر حكماً قاطعاً على مواهب إنسان ما إذا كنت لم أره إلا على ارتفاع واحد معين ، بل إنى أتحين الفرص فأتبعه من أسفل الدار إلى أعلاها وأشاهد ما يكون لتخلخل الهواء وكثافته وخفته وضغطه من أثر فيه ؛ فإذا لم أجده مرحاً طروباً فى المرتفعات ، أو رزيناً وقوراً فى المنخفضات ، حكمت أنه لا يرجى منه خير أبداً ؛ وقلما صادفت إنساناً خفى عنى مزاجه وما يلائم نسيج عقله إلا استطعت فى الوقت المناسب أن أقيس هذا المزاج بأنبوبة من الزئبق أحدد عليها أولاً النقطة التى يتجلى فيها ذكاؤه بأجلى مظاهره طبقاً لقواعد أنفقت العمر فى دراستها ، ولربما أذعتها على الناس فى رسالة عن « الرياح وقياس ضغطها » .

وقد يكون من أسباب مرح سكان العلالى وخفتهم ازدياد سرعة حركتهم الدائرية المترتبة على حركة الأرض اليومية . فكلنا يعرف ما لقوة الاهتزاز من أثر فى النفس ، وما منا إلا شعر بخفة قلبه وهو فى مركبة سريعة أو على ظهر حصان عداء ؛ وليس شىء أوضح من أن من يقيم فى الطبقة الخامسة من بناء يجتاز فى كل حركة من حركات الأرض فضاء أكثر مما يجتازه من يزحف على سطحها فى الطبقات السفلى ؛ ومن أجل هذا اشتهرت الأمم التى تعيش بين المدارين بحدة طبعها ، وسرعة تقلبها ، وقوة ابتكارها وخيالها ، لأنها تعيش عند طرف أكبر نصف قطر من أقطار الأرض ، فتدور حولها أسرع مما تدور الأمم التى تقيم فى أمكنة أقرب إلى القطبين . ولما كان من واجب كل عاقل أن يعالج ما يصادفه من العيوب ، فإن من واجبنا نحن أن نعالج ما قد يعترينا من خمول بأن ندور

حول مركز الأرض بضع دورات فى حجرة عند سطح الدار .

وإذا بدا للقارئ أنى أعزو إلى الهواء والحركة آثاراً ليست لهما فإنى أشير عليه بأن يرجع إلى ذاكرته ، وأن يسأل نفسه : ألم يكن يعرف فى يوم من الأيام رجلا ذاعت شهرته وهو يسكن عُلـّية ، فلما أن واتاه الحظ أو جاءه العون من نصير ثرى فسكن فى الطابق الأول لم يستطع أن يحتفظ بما نال من صيت بعيد ، ولم يستعد قوة إدراكه إلا بعد أن ارتد إلى مكانه الأول ؟ وأنا أبعد الناس عن الظن بأن فى مقدور علية الدار أن تجعل كل من سكن فيها فطناً أريباً ؛ فأنا أعرف أن من الناس من يبقى غبياً ولو سكن فى أعلى جبال الأند Andes أو على قمة تنريف Teneriffe .

وأحب ألا يُظنّ أحد من الناس غير قابل للإصلاح إلا بعد أن يجرب فيه هذا العلاج القوى ؛ فلربما كان هذا الرجل قد خلق لأن يكون عظيما فى علية كما لم يكن البحار أرتيوس Aretaeus (١) عاقلا إلا فى مكان واحد دون غيره وهو حانوته الخاص .

وأنا أرى أن انتقال الإنسان على أبعاد مختلفة من مركز الأرض أمر لا غنى عنه للحكم على مواهبه العقلية حكماً صحيحاً ؛ ومن ثم فإن هذا الانتقال عظيم الفائدة فى شئون التعليم ؛ فإذا ما تحقق رجائى فى أن يقبل الجمهور على هذه التجربة الشاملة فإنى أقترح أن يحفر فى الأرض كهف منخفض ويشاد فوقها برج عال ، كالكهف والبرج اللذين يصفهما بيكن Bacon فى بيت

---

(١) أرتيوس Aretaeus طبيب وكاتب يونانى عاش فى القرن الأول أو الثانى بعد الميلاد ، وكتب رسالة فى ثمانية مجلدات فى أسباب الأمراض المزمنة الحادة وأعراضها وطرق علاجها .

سليمان ، لـكى يتمدد فيهما عقل الإنسان أو يركز حسبما تقتضيه ظروف أعمال النـاس وبنيتهم المختلفة ؛ وربما تبين أن الذين تتطاير أفـكارهم عن الفضاء والزمن فى أعلى البرج يستطيعون أن يضعوا جداول رياضية دقيقة عظيمة النفع إذا نزلوا قليلا إلى أسفل ، وأن الذين يقضون الوقت فى خمول وسكون عند سطح الأرض قد يستخفهم المرح فى الطبقات العليا فتصدر منهم فيها الإجابات المفحمة والخطب الحماسية .

ويقول أدسن Addison إن فى مقدورنا أن نجد حرارة الجو الذى كان يقيم فيه فرجل فى بعض سطور قصائده ؛ ومصداقاً لهذا أقول إنى إذا قرأت كتاباً ما عرفت منه فى الحال ارتفاع مسكن مؤلفه . ويقول الناس عادة إذا أرادوا أن يثنوا على قطعة أدبية جليلة المعنى رصينة اللفظ : إنها « تشم فيها رائحة المصباح » . أما أنا فإن الذى أمتدح به الفكرة النبيلة ، أو الملحة اللطيفة ، أو الاستعارة القوية ، هو أن أقول إنها « خارجة لساعتها من علية الدار » . وتلك عبارة جديرة بأن يوصف بها كل ما يكتب فى هذه الصحيفة من مقالات .